تقديـم

إن الفكرة التى أطرحها فى هذا الكتاب إنما هى فكرة بالغة القدم؛ ألا وهى إحياء دولة اليهود.

إن العالم يدوى بالصيحات العالية ضد اليهود، وهذه الصيحات هى ما أيقظ الفكرة من سباتها.

أتمنى أن يكون مفهومًا بوضوح، من البداية، أن كل ما ذُكر فى هذا الكتاب لا يستند على الإطلاق إلى أية اكتشافات جديدة؛ فأنا لم أكتشف لا حالة اليهود التاريخية ولا سبل الارتقاء بها. وسيرى كل قارئ بنفسه أن مواد البناء التى أستخدمها ليست موجودة بالفعل فحسب، بل وفى متناول الجميع. ومن ثم، إن أردت وصف هذه المحاولة نحو حل القضية اليهودية فى كلمة واحدة، فلنقل إنها نتاج نهاية حتمية لا مفر منها، وليست بسبب وهم أحمق.

وأرى أنه من الضرورى، فى المقام الأول، أن أدافع عن مخططى من أن يوصف بكونه محاولة للوصول إلى المدينة الفاضلة من قبل النقاد السطحيين الذين قد يرتكبون خطأ إصدار الحكم ما لم أحذرهم من ذلك. وحتى إذا ما كنت قد وصفت المدينة الفاضلة فى سياق أحداث إنسانية، فلم يكن هذا ليشعرنى بالخجل؛ بل ولكنت ظفرت بنجاح أدبى أكثر سهولة إذا عرضت خطتى فى هيئة رواية رومانسية غير مسئولة. ولكن هذه المدينة الفاضلة تقل فى جاذبيتها بكثير عن أى من تلك الروايات التى كتبها السير توماس مور والعديد من سلفائه وخلفائه. وإنى لأؤمن بأن موقف اليهود فى العديد من البلاد قد أصبح خطيراً بما فيه الكفاية مما يجعل من هذا التمهيد عبثًا لا حاجة له.

ربما يساعد كتاب «الأرض الحرة ـ Freiland» ذلك الكتاب الرائع الذى كتبه د. تيودور هرتزقا، والذى ظهر منذ بضع سنوات، فى أن يبرز الفارق بين المفهوم

الذى أقصده وبين المدينة الفاضلة، فمفهومه هو الاختراع البارع لعقل حديث تلقن دروسه فى مبادئ الاقتصاد السياسى، وإنه لبعيد عن الواقع بُعد الجبل الاستوائى حيثُ يقبع حلمه بإقامة دولة اليهود. وتُعد رواية «الأرض الحرة ـ Freiland» مجموعة معقدة من الآليات والعجلات المعشقة تتناسب مع بعضها البعض، ولكن دونما دليل على أنها قد تتحرك. وحتى مع افتراض تحول مجتمعات «الأرض الحرة» إلى واقع ملموس، فلا يسعنى إلا النظر إلى الأمر برمته على أنه مجرد مُزحة.

ومن ناحية أخرى، فإن المخطط القائم يشمل توظيف قوة دافعة موجودة بالفعل. وأخذًا فى الاعتبار قصورى الخاص بالأمر، سأكتفى بالإشارة إلى سنون الآلة وعجلاتها محل الإنشاء، وسأترك أمر تجميعها للميكانيكيين الأكثر براعة منى فى ذلك.

فكل شىء يعتمد على تلك القوة الدافعة، . . فما هى؟ إنها مأساة اليهود.

من يجرؤ على إنكار وجودها؟ ولسوف نناقشها تفصيلاً فى الفصل الذى يتناول أسباب معاداة السامية.

يعرف الجميع ظاهرة قوة البخار التى تتولد من غليان المياه، حتى يرتفع غطاء الغلاية، وظاهرة غليان الشاى هذه هى محاولات المؤسسات الصهيونية وعشائرها لكبح معاداة السامية.

وأرى أن هذه القوة ـ إذا تم توظيفها على النحو الصحيح ـ سيكون لها من التأثير ما يكفى لإدارة محرك ضخم، ولتحريك المسافرين والبضائع، أيّا كان شكل المحرك الذى يختاره الرجال.

وأنا مقتنع تمامًا بأننى على صواب، رغم شكى فى أنى سأحيا حتى تثبت الأيام أننى كنت على حق، فهؤلاء الذين سيبدءون هذه الحركة لن يعيشوا لرؤية نهايتها المجيدة، بيد أن فى خلقها ما يكفى من الفخر والسعادة بنوع من الحرية الروحانية.

ولن أسهب فى إعطاء وصف فنى مفصل لمشروعى خوفًا من إثارة الشكوك بأنى أرسم صورة المدينة الفاضلة. وعلى أية حال، فإننى أتوقع أن يسخر المتهكمون الطائشون من عملى هذا ويحاولوا إضعاف أثره. وقد كان رأى أحد اليهود ـ ممن

وُهب الذكـاء والفطنة فى أمـور أخـرى ـ بعـد أن شـرحت له مـخططى، أن «المدينة الفاضلة كانت مشروع قدمت تفاصيله المستقبلية كحقيقة باقية». وهذه مغالطة، فكل وزير مالية يحسب فى موازنته تقديرات بأرقام افتراضية؛ ليس فقط تلك المبنية على متوسط إيرادات الأعوام السابقة لبلده أو البلاد الأخرى، بل وأحيانًا على أرقام ليس لها أية أصول على الإطلاق، مثلما يحدث عند فرض ضريبة جديدة على سبيل المثال. فكل من يدرس علم الميزانيات يعرف أن الأمر يسير فى هذا النصاب، فهل العلم بأنه لن يتم الالتزام بهذه التقديرات على نحو دقيق يعنى اعتبار مثل هذا المشروع المالى مدينة فاضلة؟

ولكنى أتوقع من قرائى أكثر من هذا، وأطلب من النخبة المثقفة التى أوجه إليها حديثى أن ينحوا جانبًا العديد من الأفكار المسبقة. بل وسأذهب إلى أبعد من هذا مطالبًا اليهود الذين بذلوا أقصى جهدهم لإيجاد حل للمسألة اليهودية أن ينظروا إلى كافة محاولاتهم السابقة باعتبارها خاطئة وعقيمة.

وأرى أنه هناك خطر ما يجدر بى الاحتراس منه عند تقديم أفكارى؛ إذا شرعت فى وصف الظروف المستقبلية بحذر بالغ، فسأبدو وكأننى لا أثق فى إمكانية حدوثها، ومن ناحية أخرى، إذا أكدت على إمكانية تحقيقها بلهجة شديدة الثقة، فسأكون كالذى يصف وهمًا لا سبيل إلى تحقيقه.

ومن ثم، فإننى سأعلن بشكل واضح ودقيق أننى أؤمن بالنتيجة العملية التى أتوقعها من وراء مخططى، دونما ادعاء بمعرفتى الشكل الذى سيأخذه هذا المخطط فى نهاية الأمر: الدولة اليهودية أمر جوهرى للعالم، ومن ثم فإنه لا مناص من إقامتها.

وبالطبع ستبدو الخطة شديدة السخافة إذا ما حاول فرد واحد تحقيقها؛ أما إذا تعاون عدد من اليهود على تنفيذها فستبدو منطقية تمامًا، ولن يشكل إتمامها أى صعوبة تذكر. يتوقف الأمر فقط على عدد مؤيديها، وأحسب أن رواج الفكرة سيعتمد فى الأساس على شباب اليهود المتحمس الذين انغلقت أمامهم كل سبل التقدم، ويرون فى هذه الدولة اليهودية الغد المشرق الحامل لكافة معانى الحرية والسعادة والشرف.

وأشعر أن مهمتى قد انتهت بنشر هذا الكتاب، ولن أمسك بقلمى مرة أخرى ما لم أكن مدفوعًا إلى ذلك بهجوم خصوم ذوى شأن بارز، أو إن كان لا مناص من مواجهة اعتراضات مباغتة أو إزالة بعض الأخطاء.

تُرى . . هل ما أقول الآن بعيدا عن الواقع؟ هل أسبق أوانى؟ أليست معاناة اليهود الآن فادحة بالقدر الكافى؟ سنرى.

يتوقف على اليهود أنفسهم أن يبقى هذا الكتيب السياسى مجرد خيال سياسى، وإذا كان الجيل الحالى بهذا القدر من الفتور بحيث يعجز عن فهم هذا الكتيب على النحو الصحيح، فسينهض فى المستقبل جيل أفضل وأحسن يستطيعون فهمه. فاليهود الذين يحلمون بالدولة سيحصلون عليها، ولسوف يستحقونها.

* * *

obeikandl.com